



لمحاكمة التحرّك الروسي أخيراً في إدلب (في سورية) بمنطق الاستراتيجيا ومعاييرها، فإنه يمكن الحكم ببساطة ببغاء هذا التحرّك، لأنّ حاصله لن يضيف شيئاً ذا قيمة يساعد روسيا على الخروج من مأزق تواجهها، فضلاً عن أنّ هذا التحرّك يفاقم من أزماتها، في سورية وخارجها، ولا يكسر المعادلة الجهنمية التي وضعت روسيا نفسها بها، ولا يحرّك قطع الستاتيكو المتناثرة لإنتاج وضع مريح لروسيا. ذهبـت كـبريات الصـحف العـالـمـيـة إـلـى تـفـسـيرـات عـدـيدـة، مـؤـداـها أـنـ روـسـيا تـسـعـيـ، عـبـرـ تـهـديـدـ إـدـلـبـ، إـلـى إـصـاـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ عـصـفـورـ بـحـجـرـ وـاحـدـ، مـنـهـاـ إـعادـةـ ضـبـطـ المعـادـلـةـ القـائـمـةـ معـ أمـيرـكاـ؛ لـدـفـعـ الأـخـيـرـةـ إـلـىـ التـفاـوضـ مـعـهـاـ وـإـنـهـاـ حـالـةـ الجـمـودـ التـيـ بـاتـ تـضـرـبـ المـلـفـ السـوـرـيـ، وـتـمـنـعـ الرـوـسـ تـالـيـاـ مـنـ الـذـهـابـ إـلـىـ الـخـطـوةـ التـالـيـةـ، وـهـيـ قـطـفـ ثـمـارـ ماـ تـزـعـمـ أـنـهـ اـنـتـصـارـ عـسـكـريـ فـيـ الـاـقـتصـادـ وـالـسـيـاسـةـ. وـتـذـهـبـ تـفـسـيرـاتـ أـخـرـىـ إـلـىـ أـنـ الغـاـيـةـ روـسـيـةـ مـنـ التـحرـكـ هيـ التـلـويـحـ لأـورـوباـ بـعـصـاـ الـلـاجـئـينـ، كـيـ تـسـارـعـ أـورـوباـ إـلـىـ دـفـعـ مـسـتـحـقـاتـ إـعادـةـ الإـعـمـارـ فـيـ سـوـرـيـةـ، وـخـصـوصـاـ أـنـ التـحرـكـ هـيـ التـلـويـحـ لأـورـوباـ بـعـصـاـ الـلـاجـئـينـ، كـيـ تـسـارـعـ أـورـوباـ إـلـىـ دـفـعـ مـسـتـحـقـاتـ إـعادـةـ الإـعـمـارـ فـيـ سـوـرـيـةـ، وـخـصـوصـاـ أـنـ استـخدـامـ وـرـقـةـ الدـفـعـاتـ الـأـولـىـ مـنـ الـلـاجـئـينـ قدـ نـفـدـ مـفـوـلـهاـ، وـاستـطـاعـتـ دـولـ أـورـوباـ تـجاـوزـ تـدـاعـيـاتـهاـ وـانتـهـتـ مـنـ النـقـاشـ المـلـحـيـ، الـأـورـوبـيـ - الـأـورـوبـيـ. وـفـيـ أـلمـانـيـاـ بـالـتـحـدـيدـ أـدـىـ صـعـودـ حـزـبـ الـخـضرـ إـلـىـ مواـزـنـةـ الـمعـادـلـةـ لـصـالـحـ الـلـاجـئـينـ، وـخفـتـ وـهـجـ الأـحـزـابـ الـيـمـينـيـةـ، وـخـصـوصـاـ حـزـبـ الـبـدـيلـ. وـتـرـىـ تـفـسـيرـاتـ أـخـرـىـ أـنـ غـرـضـ التـحرـكـ روـسـيـ تعـوـيمـ الأـسـدـ عـبـرـ مـنـطـقـ الأـمـرـ الـوـاقـعـ، ذـلـكـ أـنـ سـيـطـرـتـهـ عـلـىـ إـدـلـبـ سـتـجـعـلـ أـيـ اـعـتـراـضـ عـلـىـ شـرـعيـتـهـ نـوـعـاـ مـنـ الـفـانـتـازـياـ الـلامـعـقـولةـ، إـذـ لـنـ يـكـونـ ثـمـةـ طـرفـ سـيـاسـيـ لـهـ حـيـثـيـةـ يـشـكـلـ بـدـيـلـاـ مـحـتمـلاـ لـهـ؛ حـيـنـئـذـ تـصـبـحـ الدـعـوـةـ إـلـىـ تـنـحـيـهـ عـنـ السـلـطـةـ بـمـثـابـةـ مـطـالـبـ بـحـصـولـ فـرـاغـ فـيـ السـلـطـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ، وـهـوـ مـاـ لـيـقـبـلـ الـمـنـطـقـ السـيـاسـيـ، بـالـنـظـرـ لـتـدـاعـيـاتـهـ الـأـمـنـيـةـ الـخـطـيرـةـ عـلـىـ مـسـتـوىـ سـوـرـيـةـ وـالـمـنـطـقـةـ.

وـتـبـدوـ هـذـهـ تـفـسـيرـاتـ مـنـطـقـيـةـ، لـأـنـسـجـامـهاـ مـعـ طـبـيـعـةـ التـفـكـيرـ روـسـيـ، وـالـذـيـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ مـحاـوـلـةـ الـكـرـمـلـينـ اـتـبـاعـ قـدـرـ مـنـ الـغـمـوشـ فـيـ سـيـاسـاتـهـ الـخـارـجـيـةـ، وـخـصـوصـاـ كـلـيـشـيـهـاتـ إـنـ روـسـياـ لـاـ تـدـافـعـ عـنـ أـشـخـاصـ مـعـيـنـينـ فـيـ سـوـرـيـةـ، أـوـ أـنـ روـسـياـ

تحترم القانون الدولي، إلا أن هذه السياسة باتت مكشوفة، وتفكّكت، عبر ثلاث سنواتٍ ونصف السنة من تدخل روسيا المباشر في سوريا، جميع طلاسمها، إلى درجة أن أحداً لم يعد يهتم بادعاء الرئيس بوتين أن قواته ستنسحب من سوريا، ولا مؤتمرات أستانة، ولا ادعاءات قرب التوصل لتشكيل لجنة دستورية.

وللتحرك الروسي أغراضٌ داخلية أيضاً، لا تقل أهمية عن الخارجية، تتعلق بسلطة بوتين التي تواجه إرباكات في الداخل الروسي؛ فقد ذكرت صحيفة موسكو تايمز أن شعبية دعم التدخل العسكري الروسي في سوريا تراجعت بشكل كبير، استناداً إلى إحصاء جديد أجراه مركز "ليفادا" المستقل، ذلك أن 55% من المستطلعة آراؤهم طالبوا بإنهاء حملتها العسكرية في سوريا. والنتيجة الأخطر تراجع نسبة الروس المتابعين للأحداث في سوريا، ما يعني أن التدخل هناك، وأراد بوتين منه إشغال الداخل الروسي عن قضايا الفساد والحكم المستبد، قد استنفذ فعاليته، فهل التحرك في إدلب محاولة لاسترداد الروح لهذه الوظيفة؟

الجواب بالطبع لا، لأن سلطة بوتين تعاني من أزمةٍ مركبةٍ داخل روسيا، هي أزمة انكشاف القابضين على الحكم، الببيروقراطية والأجهزة الأمنية ورجال أعمال الكرمليين الذين لا هم لهم سوى الاغتناء، فيما ترزح البلاد تحت فشل مرير على المستويات الاقتصادية والتعليمية والصحية والتقنية والتكنولوجية، ويزداد الروس فقرًا.

أما الأزمة الأخرى، فيسميها المعارض أندريه بيوتوكوفسكي، "موت أسطورة بوتين"، ويرد أسباب الأزمة التي تمر بها روسيا إلى عملية تراكمية بدأت تكشف أخيراً، ويقول إن كل نظام تسلطي ينبغي أن يقوم على أسطورة ما تُقدم للرعايا كي يتحملوه. ويقول إن الروس يتذكرون جيداً خريف العام 1999، حين حدثت تفجيرات المسakens وأندلعت حرب الشيشان، وقامت الكليتوقراطية (حكم اللصوص) الحاكمة، عبر جهاز التلفزة، بإيجاد أسطورة ضابط المخابرات الشاب البطل، الذي يحمي الروس من الإرهابيين، لكن هذه الأسطورة، حسب بيوتوكوفسكي، انتهت، وأصبح الجميع يدرك المأزق الشامل لسلطة النهب البوتينية، وغياب أية ضمانات اجتماعية وآفاق للمستقبل.

لن يستطيع التحرك الروسي في إدلب الانقلاب على هذه المعطيات، وتحقيق نتائج مهمة من شأنها ترميم ما عطلته الواقع والأحداث، كما أن بوتين لن يستطيع إحياء ما هو ميت، طالما أن دبلوماسييه يحملون جثة بشار الأسد عبر العواصم في محاولة لإعادة إحيائه، وذلك يمثل قمة الفانتازيا والubit، فمن يشتري جثة متوفنة؟ ولن يستطيع أحد، مهما بلغت درجة وقادته، تأهيل مجرمٍ من عينة بشار الأسد. كما أن لعبة بوتين القائمة على "تأجيل التاريخ" في سوريا، بتمديد حكم الأسد، وتنويم الثورة ضده بالقوة وبسياسات الإبادة والأرض المحروقة، انتهت ولم تعد مجده، فبالإضافة إلى تكاليفها الباهضة، فإنها معاكسة لمنطق التاريخ والحقيقة، وسيخضع لها بوتين مكرهاً، مهما حاول التفلت منها.

المصادر:

العربي الجديد